



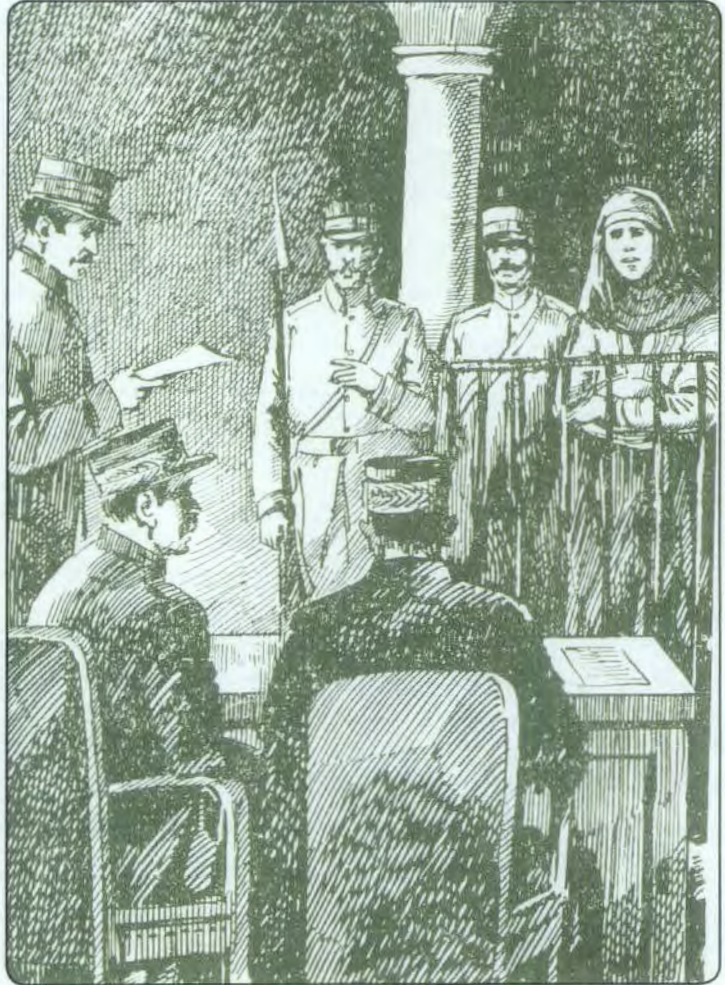
المرأة المناضلة

في رواية «أرض البطولات» تجسيد للـ

تعد رواية أرض البطولات للدكتور عبد الرحمن الباشا رواية نوعية بخصوصيتها التي وثقت نضال الشعب العربي في سورية ضد المستعمر الفرنسي منذ دخوله سورية وحتى الجلاء عنها، وقد طبعت الرواية عام ١٩٦٠ بعد أن فازت بجائزة مسابقة وزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة زمن الوحدة بين مصر وسورية، وقررت وزارة التربية تدريسها في الصف الأول الثانوي.



محمد قرانيا (*) - سورية



حياتها لتحرير الوطن مقدمة التضحية تلو الأخرى، حتى غدت رمزا من رموز الكفاح الوطني. يشمل الحيز المكاني للرواية تلك الربوع الشامية

تحكي الرواية قصة النضال الوطني الذي شاركت فيه جميع فئات الشعب فقدمت مئات الشهداء، وتبرز من خلال شخصياتها الرئيسية «رتيبة» التي نذرت

(*) عضو اتحاد الكتاب - إدلب - سورية.

كفاح الذي حقق الجلاء عن أرض الوطن

بعد أن قضى على حامية (سلقين) الفرنسية، وجعل مركز ثورته في جبل الزواية، وفاوض القائد الفرنسي في بلدة (أريحا) وفي قرية (كورين) بعد أن نجا من المكيدة الفرنسية بأعجوبة خارقة.

لكن صورة الأم (رتيبة) (أم عبادة) هي الصورة التي تغطي جميع أحداث الرواية، وتربطها بها. فتبدو لنا امرأة صلبة مناضلة، وشخصية روائية نامية ومتطورة تضحي بالروح من أجل انتصار الوطن.

هذه الشخصية المتألقة ربما كانت تخالف المألوف الاجتماعي الذي كانت تعيشه المرأة السورية في طرح قضية النضال الوطني في ظل البنية التقليدية لنظام الأسرة السورية، في مطلع القرن العشرين، أو قضية الأمومة والحب الغريزي الذي يرفع الابن في عين الأم إلى قمة الكمال والجمال، فتجد أمثال

هذه الشخصية تصمُّ على قلبها عن جميع عواطفها، وتبصري لتنفيذ المهام المسندة إليها.

إن «أم عبادة» في رواية (أرض البطولات) تشكل الموضوع الرئيسي الذي تتمحور حوله الرواية بسردها التاريخي وعرضها الفني، المتمثل في النضال ضد

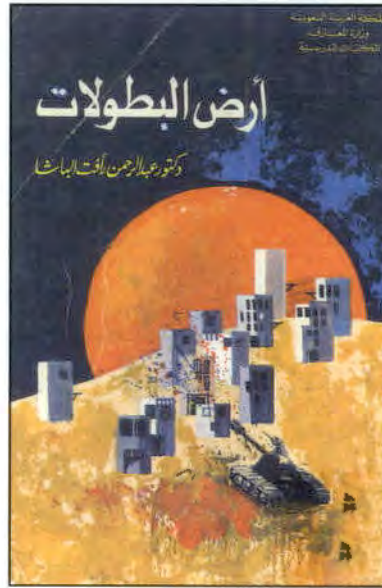
التي ثوى في كل شبر منها شهيد مضمخ بطيوب المعارك، وهوى على كل ذروة من ذراها نسر رافع الرأس مبسوط الجناح، وتخرج الرواية على ثورة الشمال، وتقف على ميادينها ومرابض ثوارها في كفر تخاريم وأريحا وما حولها من سهول وهضاب.

وأشخاصها مواطنون معروفون، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ف«رتيبة»، «أم عبادة» هي «أم عبدو» تلك المرأة الفقيرة المجاهدة التي عرفتها دمشق إبان الثورة السورية الكبرى، وروت كثيرا من بطولاتها.

و (زكريا أفندي) هو السيد (زكريا الداغستاني) ذلك المواطن الشهم الذكي الذي عاش أحداث الثورة، وظلت في خياله منها بعد الاستقلال ذكريات تتألق بسنا المجد.

و (عبادة) هو ذلك الفتى الباسل الذي أطلقت عليه (دمشق) لقب الشهيد الحي بعد أن نجا من مجزرة مجلس النواب بأعجوبة.

و (إبراهيم هنانو) هو نفسه الزعيم الوطني الذي انبثق من قلب الشعب، وجمع الثوار حوله، وأشعل ثورة الشمال، وشكل أول حكومة وطنية في (كفر تخاريم)





إلى (داريا) مع وليدها، للعيش في كنف أخيها، كما صدت جميع الدعوات للزواج ثانية، مصممة على تربية ولدها بنفسها، وبالطريقة التي تؤهله لأن يأخذ دوره الفعال في الكفاح الوطني. فتعمل في (النول) الذي كان يعمل فيه زوجها، وتبيع قرطها الذهبي كي تحصل على مواد النسيج اللازمة متحدية حالة الفقر والعوز، ومتجاوزة حالاتها النفسية القاسية، وناذرة حياتها - رغم شبابها الفض - لتربية (عبادة) والقيام بواجبها كأم مواطنة تسج العبءات وتبيعها للثوار بأسعار بخسة، مضحية بتعبها الذي تراه يسيرا في سبيل تحرير الوطن.

لقد أهلتها تربيتها الريفية الرصينة لأن تكون (أُمًّا) ممتازة. علمت ابنها حب الوطن، فأخذته إلى الكتاب منذ نعومة أظافره، وتابعته يوما بعد يوم إلى أن انتقل إلى المدرسة الثانوية في دمشق ليشترك مع رفاقه في المظاهرات التي تندد بالاحتلال، وتطالب بالجلء عن الوطن.

وكما كانت (أُمًّا) ممتازة في تجاوز عواطف قلبها، والدفع بابنها إلى المشاركة في النضال الوطني، فإنها كانت (أُمًّا) مناضلة على أفضل ما يكون النضال، وفاقته فيه الرجال، حين نذرت نفسها للكفاح الميداني، فعملت على نقل الرسائل السرية من قيادة ثورة (هنانو) في الشمال إلى المجاهدين في (حي العمارة) بدمشق، على الرغم من حصار المدينة، مجتازة حواجز التفتيش الفرنسية في الذهاب والإياب، ومتعرضة للموت في ظروف قاسية صعبة.

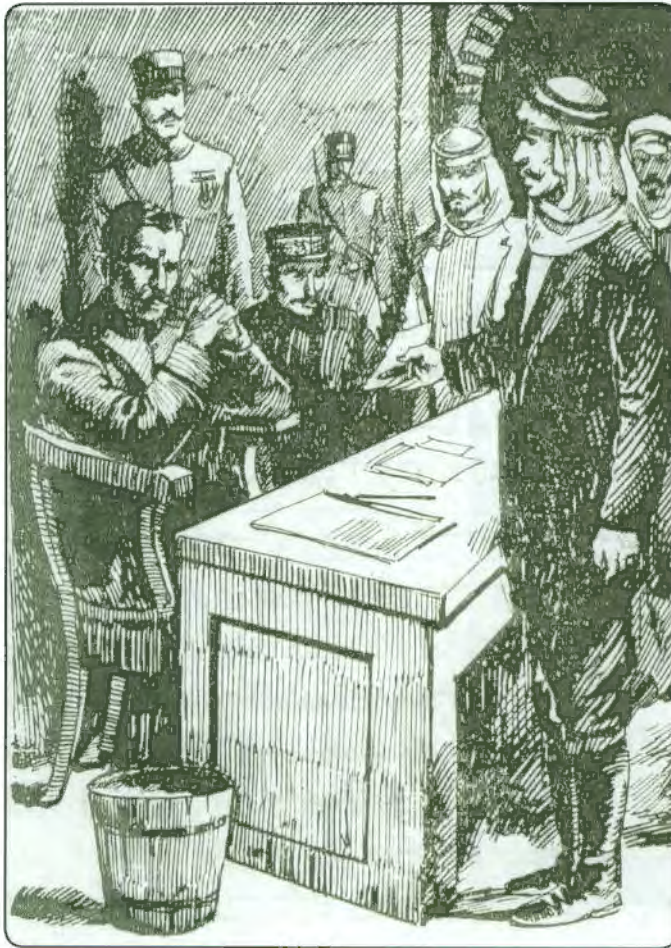
ترسم الرواية صورة المرأة المناضلة في خط تصاعدي. شأنها في ذلك شأن الأحداث التي يتصاعد فيها الخط البياني للثورة، ومع ازدياد التنكيل بالشعب السوري، وقصف دمشق بالطائرات والمدافع ستين ساعة كاملة، دمرت فيها المساجد والكنائس

غريب أجنبي يجثم فوق أرض الوطن، ينكل بشعبه ويسرق خيراته، ولا غرابة إذا قلنا: إن «رتيبة» الأم هي الوطن سورية في معاناته ونضاله.

إن صورة الأم تهيم على الرواية بصورة صارخة كظاهرة فلسفية حيوية تدفع القارئ إلى التعامل والتفكير في (ماهية) هذه المخلوقة التي تتفجر عطاء وتنشظى وطنية. لا تهاب الصعاب، ولا تبالي برصاص جنود الاحتلال. لقد نشأت رتيبة في قرية (داريا) فكانت مثالا حسنا لفتيات الريف العربي نظر لتربيتها التي أعدتها لمجابهة الأحداث ومواجهة ظروف الدهر، فقد عملت في الحقل منذ نعومة أظفارها، وهي إلى جانب ذلك قد غزلت صوفها، وحاكت ملابسها، بأناملها، وباعت ما فاض منه في السوق.

ويرافق مولدها مع مطلع القرن، فتتوأكب محطات عمرها مع الأحداث التي يتعرض لها الوطن، حتى إذا كانت نهاية الحرب العالمية الأولى وابتدأ الوطن يتنسم رياح الحرية تزف إلى زوجها، وتنقل إلى كنفه في قرية (حرسنا) فتبدو في الرواية شخصية تتمتع بكامل صفات المواطن الفخور، تساعد زوجها (العريس) على الانخراط في صفوف المجاهدين ليشترك في معركة (ميسلون) مع إخوانه الشرفاء، فيشهد بعينيه بطولات البطل (يوسف العظمة) واستشهاده، وما إن يدخل الجيش الفرنسي دمشق، ويتوزع في المدن السورية حتى يأخذ (رتيبة) المخاض، الأمر الذي يدفع زوجها للبحث عن (قابله)، وينسى أن الفرنسيين قد منعوا التجول، فيسقط صريعا برصاص المحتل دون أن تكتحل عيناه بمراى إطلالة ابنه الأول والأخير.

إن استشهاد الزوج، وولادة الابن كانا دافعا للأم كي تتأثر لجميع شهداء الوطن، فتجعل منها الرواية أُمًّا مثالية، ترملت في سن مبكرة، ورفضت العودة



والمدارس والقصور، كان على (أم عبادة) أن تصعد من نضالها فتعمل على جمع صوحيباتها وجاراتها، وتنقل إلى (جوبر) وما جاورها تستهض الهمم هناك، وتستشير العزائم، وتعمل معهم على إيصال الذخيرة إلى المجاهدين وذلك بطريقة ذكية، حين جمعت جرار الفخار من المنازل وملأتها بالذخيرة وسدتها بإحكام، وألقت بها في ماء النهر الذي يجري باتجاه الثوار المحاصرين في (الزور) وأعادت (رتيبة) وصوحيباتها الكرة، وتكاثرت الجرار حتى وجد فيها الثوار المحاصرون الخلاص والفرج.

لكن الإنسان المكافح لا يمكن أن تظل الرياح المؤاتية تسير حسب رؤيته بصورة دائمة، فتقع (رتيبة) في أيدي جنود الاحتلال في (جوبر) وتساق إلى سجن القلعة، في الوقوف الذي كان ابنها الصغير (عبادة) يعود من كتابه فلا يجد في الدار أحدا، ويفتقد الملاذ الآمن بعد أن فقد الأب قبيل إطلالته

القصير الأمد الصبر والعناد، وتعلمت أن تقارع الأيام، كما تقارع المستعمر المحتل، لذلك فهي لا تشكو ولا تتذمر. وإنما كانت تختزن أحزانها في صدرها، تداريها بالكتمان والصلاة والعزلة، فتبدو عليها كآبة حادة، هي صورة مثالية أخرى للحالة النفسية التي سيطرت عليها في فترات الشدة.

ويلاحظ الباحث أن شخصية المرأة الشابة هذه قد غابت عنها الجوانب الأنثوية حتى بدت شخصية ذات نسيج خاص، وكأن جسدها لم يخلق إلا للنضال والكبح، وأن فكرها وعقلها لا يتوجهان إلا باتجاه (ولدها) اليتيم، و(وطنها) المستباح، وقد تجد فيهما، تعويضا للآب

على الحياة، وينحصر تفكير الأم في السجن بولدها، وتتمنى لو تعلم أين هو الآن؟ «أكان لا يزال في الأزقة تهره الكلاب فيلتجئ من باب موصد إلى باب موصد، وقد مزق الخوف قلبه الصغير؟ أم أن يدا رحيمة امتدت إليه فأمنت خوفه، وهدأت روعه، وأطعمته لقمة مما فاض عن أنبائها، وآوته في طرف فراش تحت أقدام صغارها؟...» وهذا الذي توهمته قد حدث؛ إذ احتضنت إحدى الجارات الطفل الصغير، وأولته الرعاية والحنان.

لقد تعلمت (أم عبادة) من نضالها، ومن سجنها



ويضع فوق رأسه قبعة مما يلبس اليهود....».

أما هي فقد أدخلت في قفص حديدي كبير، ووقف عن يمينها وعن شمالها ومن ورائها كثير من الجند، عرفت منهم اثنين كانا ممن ألقوا عليها القبض في القناة إثر معركة (الزور) ولا تخرج من المحكمة إلا بعد أن يحكم عليها بالإعدام شنقا.

في مثل هذه المظاهر الاحتفالية المخيفة تتألق «رتيبة» فلم تكن خائفة من الموت، وإنما اعترها قلق ربما تموت من دون أن ترى ابنها (عبادة)، لذلك نراها تبتسم وتتفائل حين تتذكر أن القانون يبيع لها تلبية بعض رغباتها قبل تنفيذ الإعدام، ولتختصر كل هذه الرغبات في «رؤية ابنها»...

الشهيد، فكانت أما تسمو فوق عالم النساء، وتقود رمزا للطهارة والبراءة والكمال، كما هي رمز للأمومة الحق، تنفجر عاطفة وحنانا تجاه ولدها، وتجعل من نفسها واحة ظليلة له، تحميه من هجير الحياة، وفحيح سراياتها، وملجأ له لا في حضورها فحسب، وإنما في غيابها أيضا. فهي عندما كانت في السجن لم يغب لحظة عن مخيلتها حتى إنها كانت ترى الوطن كله متمصا في طفلها الحبيب.

إن تقديم (أم عبادة) إلى المحكمة الفرنسية مقيدة اليدين، صابرة مدعنة، مشيعة بنظرات السجينات وسيرها في ممرات القلعة المتعرجة كل ذلك يجعل منها (أنموذجا) حيا خالدا، وهي تشيع الجند المدججين بالسلاح بنظرات تفيض منها نظرات الاستهجان لفرنسا بأسرها، وهي المرأة الأنثى الضعيفة التي استغفرت كل هؤلاء الجنود وهذه الأسلحة.

لقد نقلت (رتيبة) بسيارة مصفحة وسط مظاهر حراسة مشددة، ويسير الموكب نحو الباب، صابرة محتسبة. رابطة الجأش.

فلم تشأ أن تسأل أحدا من هؤلاء الجند عن وجهتهم. لأنها كانت تربأ بنفسها عن أن تهان. وتضن بكرامتها أن تبتذل. ثم يدخلونها مبنى كبيرا محاطا بالأسلاك الشائكة، ومحما بالدبابات والجنود، فتقتاد إلى حجرة صغيرة، تقضي إلى حجرة كبيرة، عرفت أنها المحكمة «كان يجلس في صدر القاعة ثلاثة ضباط فرنسيين. دلت الشرط التي تثبت على أكمام ستراتهم والأوسمة الكبيرة التي استقرت على صدورهم، والقلانس الموشاة التي رفعت على رؤوسهم على أنهم من ذوي الرتب العالية.... وكان على يمينهم ضابط صغير وضع أمامه دفترًا كبيرا وقلما ودواة، وعلى شمالهم رجل يلبس الثياب المدنية،

وشهداء، فلم يقتل الرصاص «عبادة» وإنما تحامل على جراحه المشخنة، ونهض من بين الحصى والتراب الهش، فزحف إلى الطريق العالم حيث يأخذه بعض السيارة إلى مشفى وطني، وهناك يجتمع الشمل ببعض رموز الثورة، وتفرح «أم عبادة» بحياة ولدها، وتتمنى لو أن «أبا عبادة» كان حيا ليعلم أن الرصاص الأولى التي أطلقت في ميسلون لم تذهب سدى، وأن الصخرة التي تفتت اليوم بجلاء فرنسا عن الوطن، تشكو ضربة المعول الأول.

رسم الباشا صورة الأم في الراوية بحذق ومهارة، فكانت صورة مشرفة للمرأة العربية التي لم ترض أن تشارك في الثورة بتقديم عبااتها التي نسجتها بيديها، أو التبرع بحليتها، لشراء السلاح والذخيرة فحسب، وإنما كانت مناضلة حقيقة شاركت بالقول والعمل، فقدمت زوجها فداء للوطن، ونذرت ابنها ليأخذ دور أبيه الشهيد، ثم كانت هي الفدائية التي حكم عليها بالإعدام.

لكن الوطن أنقذها حين دافع عنها برجاله مثلما دافعت هي عنه.... وقد أنقذها الله كما أعاد إليها ابنها من القبر، وعاشت معه فرحة الحياة، وفرحة النصر بجلاء آخر جندي عن أرض سورية.

لقد تجمعت حول «رتيبة» جميع أحداث الرواية، فكانت محورها وعمودها الفقري، الذي مزج بين النسيج النضالي والعاطفي، وفي ذلك التفتاة بارعة من المؤلف الذي ينتصر من خلال شخصية المرأة الوطنية، فيكشف عن موقفها المبدئي المعادي للمستعمر، ويجعلها حاملة للبطولة الروائية، ويعلق بها الحدث، فما إن تغب في فصل، حتى تعود للظهور من جديد، فتقدو بمنزلة الرابطة الحيوية بين الأحداث، تصل الماضي التاريخي بالحاضر الكفاحي، والمستقبل الاستقلالي، كما تصل ثورة الشمال بقيادة الزعيم إبراهيم هنانو، بثورة دمشق والغوطة وتنخرط فيها بنفسها.

لكن مكانة «رتيبة» في الثورة، وسيرتها التي تناقلتها الألسنة في الشمال والجنوب، قد حركت في نفس «زكريا أفندي» مشاعر الوطنية التي لا تقاوم وهو الرجل الوطني الذي يعمل في سجن القلعة. فقرر أن يتحرك بسرعة، ويرسم لها طريقة لهربها وإنقاذ حياتها وإعادة لها إلى صفوف الثوار، وينجح في ذلك، فتعود رتيبة إلى ابنها، ويرغم الفرنسيون إلى إصدار عفوعنها وعن بعض رفاقها الثوار، لتعود وتربي ابنها التريبة اللائقة التي تجعله بطلا مقداما، ورمزا وطنيا من رموز الثورة السورية الكبرى، فهو بعد أن يشارك في المظاهرات، ينتقل إلى مرحلة النضال الميداني، وينادي بأن فرنسا التي احتلت البلاد بقوة السلاح لن تخرج إلا بقوة السلاح...

وكانت أمه التي تراه في أثناء زيارته لها في حريستا موفور الشباب، يأخذها الزهو بأنها استطاعت أن تتجلب هذا الشاب، وحين تسمعه يتحدث عن أمته وبلاده في حرارة وتدفق، تطرب لأنها استطاعت أن تهب الوطن هذه الطاقة الخيرة جميعها، «ويرى أهل القرية تواضع عبادة ومروءته ورجولته فيقولون: ابن البطلين، وسليل المجاهدين».

إن عبادة ينتقل إلى مرحلة الكفاح المسلح، فيحمل السلاح، ويندفع مع رفاقه البواسل للدفاع عن مجلس النواب (البرلمان)، ويقف إلى جانب حاميته ليصد بصدرة رصاص الفرنسيين. في معركة ضارية استمرت ست ساعات، انتهت بمصرع المدافعين عن المجلس النيابي جميعا. «وذوى في ساعات قليلة خمسة وثمانون غصنا من أنضر غصون الوطن، وأغمد خمسة وثمانون سيفاً من أشد سيوفها مضاًءً. وجاءت السيارات الفرنسية على عجل وأخذت الجثث والأشلاء، وانطلقت منها إلى (المزة)، وهناك ألقاها الجنود في حفرة عميقة، وأهانوا عليها التراب والحصى والحجارة».

لكن القدر يمنح المجاهدين الصابرين أوسمته أحياء



وتبدو مزاجية الروائي عبد الرحمن رأفت الباشا بين «رتيبة» و«سورية» على درجة من الوعي الفني، فكلتاهما عانتا من الصعاب نفسها، ولهذا عمد المؤلف إلى النهاية السعيدة المفتوحة، فالابن ينهض من الموت وتستقبله دمشق بالحفاوة اللائقة، وهو الذي أطلق عليه لقب الشهيد الحي - وهذه حقيقة وليست خيالا - والمستعمر ينخدل وينسحب من أرض الوطن، وتحيا سورية كما عاشت «رتيبة» هائلة البال في ظل الحرية والاستقلال.

إن سيرة رتيبة هي سيرة كل امرأة عربية مؤمنة، عاشت حياتها في معاناة وفقر وحرمان، حرمان من الزوج الشهيد، وحرمان من الحرية في السجن، وحرمان من العيش الكريم بسبب قسوة المستعمر وبطشه... ومع ذلك غدت في عهد الاستقلال مواكبة لتحولات المجتمع السوري في النهضة والبناء.

والقارئ غير العادي، يمكن أن يقف على الترميز الذي قصد إليه المؤلف، حين جعل من «رتيبة» رمزا للوطن السوري، لأن تمازجها

المغريات العاطفية، والتهديدات القاهرة، واختارت أن ترتبط بالوطن، رمز الحب والحرية والعزة، وفي الوقت نفسه، رمز الصبر والثبات واليقين، فكانت امرأة متميزة بوعيتها العفوي، وأنموذجا مثاليا للمرأة المؤمنة المجاهدة في الرواية العربية ■

بالوطن جعلها مطمعا للآخرين، وقد تكاثرت على بابها الرجال - بعد استشهاد زوجها - ولاحقها المستعمر فألتى بها في غيابة السجن، ثم حكم عليها بالإعدام، إلا أنها حافظت على نفسها، وبناء شخصيتها بعيدا عن

«لقد أحسست بنجاح تربية والدي حين ذهبت إلى بريطانيا وتعاملت مع الناس والمجتمع هناك. لقد علمنا الوالد ديننا القويم فكان خير نبراس يضيء لنا الحياة».

شهادة

يمان عبد الرحمن الباشا